الباب الثاني

الجغرافيا في المستقبل

تعليق المترجمين

يذكر بيتر كولد في هذا الباب «الانفجار الجغرافي» مرارا، فما هو هذا الانفجار؟ إنه ببساطة خروج الجغرافيون من قاعات الدرس والبحوث النظرية الى الميدان العملي التطبيقي، إنه الانفتاح على العلوم الاخرى للاستفادة من تقنياتها والنتائج التي توصلت اليها، ولما كانت العلوم كثيرة، والحياة متشعبة متنوعة الجوانب والمعطيات لذا ما أخذه الجغرافيون وما استفادوا منه لم يكن شيئا قليلا، كذلك ما اضافوه إنه انتقال نوعي بوسائل كمية، وبهذا اصبحت الجغرافيا علما ذي اسلوب ادبي، وأدب ذي منطق علمي، ولهذا عدت الجغرافيا علما حدوديا، يشترك في مفرداته وميادينه من جميع العلوم تقريبا، سمتها الاساسية الشمولية (الطبيعة والانسان) ومنهجها التحليل والتفسير المكاني.

عاشت الجغرافيا تجربة الإنفجار عند الاكتشافات الجغرافية خلال القرون الوسطى، ويعيد الجغرافيون التجربة ليكتشفوا عالم اليوم والحياة العصرية بشكل متغيراتها وجوانبها، إنه الانفجار المعلوماتي الجغرافي الثاني، إنه ارتباط بالحياة والمستقبل والخروج عن السياقات التقليدية في التفكير والعمل، الى أين يؤدي هذا الانفجار؟ هذا ما يحاول المؤلف تأشيره في الجزء المتبقي من هذا الكتاب.

الجغرافيا علم يدرس في جميع جامعات العالم تقريبا، وليس هناك دولة ليس فيها جغرافيون ينشطون لخدمة بلدهم بعلمهم، سواء بالتدريس أم بالبحث، أو بالاثنين مع بعض، لذا فالجغرافيا معرضة للتطور والتغيير من قبل أي جغرافي مبدع في أية بقعة من بقاع العالم المترامي الاطراف. وفي البدء كانت الكلمة، كما يقال، والكلمة هي اللغة التي تعبر بها عن انفسنا وما نفكر به وما نريد من الاخرين ان يعرفوه، ولولا الكلمة لما ظهرت حضارة على وجه البسيط، ولما حصل التقدم الحضاري والتقني الذي نجني ثماره اليوم نتيجة التراكم

المعرفي الهائل الذي ساعدت الكلمة على قيامه واللغة، ممثلة بالكلمة، هي مجد الإنسانية وعظمتها. وهي مشكلتها الكأداء، انها العائق أمام التفاهم وهي النافذة التي تطل منها الشعوب على بعضه إنها الجسر الذي تتلاقى عنده الافكار للتلاقح وتزدهر وتنتج من جديد، إنها الوسيلة الأساسية لنقل الخبرة وتبادلها.

من أجل مد الجسور بين الجغرافيين يقترح الكاتب ضرورة ثنائية اللغة عند الجغرافيين، ويرى أن تنشط حركة الترجمة ليتم تقليل الفاصل بين جغرافي الكرة الأرضية ومعرفة ما يقوم به الجغرافيون في مختلف اصقاع الأرض، إنها الوسيلة الفعالة التي تجعل الفكر الجغرافي موحدا متناسقا في حركته وتطوره، ويقترح بيتر كولد ن تقوم ألجمعيات الجغرافية باختيار الكتب والبحوث ذات الاهمية لترجمتها، وتشكل المترجمات هذه نقاط اتصال غير مباشر بين جغرافي العالم ليتعارفوا ويتبادلوا الافكار والخبرة، كما تشكل المؤتمرات العلمية الدولية والحلقات النقاشية المتخصصة واحات يستريح فيها المسافر ويتبادل بها منتوجه ويتعرف على ما لدى الآخرين ويتزود بالجديد. ويرى كولد ضرورة فسح المجال أمام الجغرافيين الشباب للمشاركة في هذه النشاطات وزيارة الاقسام المناظرة في الجامعات الاجنبية (خارج بلده). مسألة التعارف هنا ضرورية لتقريب وجهات نظر ذوي الاهتمامات المشتركة والتعريف بالتطوررات التي تحصل في الميدان التخصصي الدقيق. ولعل تبادل المعرفة والخبرة بين المختصين يساعد في ظهور نظريات جديدة وبلورة نظريات موجودة اصلا وتطويرها.

وقبل تبادل المعرفة والخبرة من الواجب التعلم، فالتعليم الوسيلة الأوسع انتشارا لإكتساب المعرفة. ومن خلال التعليم يتم توسيع أفق الطلبة من خلال اطلاعهم على النظريات والتطبيقات العملية لها، ولكي تكون الكتب المنهجية والمصادر مناسبة من الضروري ان تحتوي الجديد في اختصاصها وأن يتم تحديث معلوماتها بشكل دوري. والتعليم الجامعي تعليم وتدريب على ممارسة تقنيات الاختصاص في ذات الوقت. والتقنيات الجغرافية كثيرة ومتنوعة وتتطلب جهدا ووقتا لتعلمها وممارستها. والتعلم النظري لا يكتمل بدون التدريب العملي. من هنا جاءت اهمية تدريب الطلبة ومنذ الدراسة الثانوية على دراسة البيئة المحلية وتسجيل الملاحظات عنها وتحليلها قصد فهمها وتفسيرها. إنها الدروس التي لا تنسى في الجغرافيا العملية، إنها الركن الأساس في التعلم عامة وفي الجغرافية خاصة.

استيعاب الطلبة للحيز الجغرافي الذي يعيشون فيه ومعرفتهم الكيفية التي تشكل بها يساعدهم في التعامل مع البيئة بموضوعية ودراية تؤهلهم لرؤية الاحتمالات المتوقعة. إنها دراسة للمكان تاريخيا وإستكشاف مساره المستقبلي. إنها دراسة دورة حياة الحيز المكاني بشكل عملي ومنهجي. إنها دراسة جغرافية تعتمد المنهج الحديث في التعلم والتعامل مع المكان إنها الجغرافيا الحديثة بتطورها الإنفجاري.

يتسائل بعض الجغرافيين، أيها أفضل دراسة منطقة جغرافية صغيرة بعمق وتفصيل أم دراسة منطقة أوسع واختيار مفردات محددة بخفة؟

المنظورين الدقيق Micro-Scale والكبير Macro-Scale مهمان ويكملها المنظور المتوسط Meso-Scale، ولكل مستوى ايجابياته، وهو لا يتعارض مع المستويات الاخرى، الدراسة على المستوى الدقيق تفيد بتفاصيلها وتحليلها كما تفيد على المستويين الاخرين في معرفة التباين والاشتراك المكان وهذا أمر ضروري لإبراز المنهج الجغرافي في التفسير. فدراسة التركيب الداخلي لمدينة ما يفيد في التخطيط العمراني لها، مثلاً، ولكن هذه الحالةالدراسية تبقى يتيمة ما لم تربط بنظرية معيارية تقاس على أساسها، وما لم تدرس مع نظيراتها لمعرفة الإشتراك والتباين للخروج بنموذج أو نظريةمكانية تفسر النتائج.

لما كانت الجغرافيا علما حدوديا فقد انساق بعض الجغرافيين دون وعي وراء تقنيات ونتائج العلوم التي هم على تماس مباشر معها، لقد نسوا أن للجغرافيا منهجها الفكري في التحليل وفي تفسير التباينات، إنها في الوقت الذي تأخذ من العلوم الأخرى فانها تضيف اليها، منظورها المكاني على الأقل، ولعل ابتعاد هؤلاء راجع إلى عدم استيعابهم للفلسفة الجغرافية ويتوجب على أقسام الجغرافيا التركيز على دراسة الفكر الجغرافي وتطوره وإيلاءه اهمة خاصة، أنه الخيط الذي يربط بين الجغرافيين على اختلاف اهتماماتهم وتخصصاتهم الدقيقة. أنه الأرض التي يقفون عليها وبدونها تدفعها رياح الإعجاب باراء الآخرين بعيدا عن الجغرافيا الأم.

ما هو مستقبل الجغرافيا في بلدان وطننا العربي الكبير؟ ما هي طبيعة الجغرافيا العربية في المستقبل؟ هل هناك جغرافيا عربية فعلاً؟ ما طبيعة المناهج الجغرافية التي يجب ان تدرس في الثانويات؟ في الجامعة؟ ما واجب الجمعيات الجغرافية؟ ما هي معايير تقييم البحوث التي تنشرها المجلات الجغرافية المتخصصة؟ ما شروط القبول للدراسة في

اقسام الجغرافيا؟ العمل فيها؟ التدريس فيها؟ ما نوع الشهاده التي تمنحها؟ ما مساهمات الجغرافيين في دراسه مشاكل المجتمع؟

ولكي نضمن مستقبلا مشرقا للجغرافيا علينا ان نبدا من الآن في رسم الملامح وتعبيد الطريق وتحديد الوسائل التي ستعتمد فالسنده التي احترنا العمل معها تعطينا حريه تحديد سمات جمالها وقبحها. مفاتنها وصفاتها. وبقدر اهل العزم تاتي العزائم. كنا يقال. وبقدر حبنا لهذا الاختصاص العلمي نبحث عن مكامن الجمال لننفض الغبار عنه ونبرره للعيان. وبقدر فهمنا للجغرافيا يكون ربطنا لها بعناصر الحياة اليومية، وبقدر تفتح ذهننا وسعة افقنا يكون تعاملنا مع العلوم الأخرى لنضيف اليها في الوقت الذي ناخذ منها. ومن الضروري أن لا تتخلف سيدتنا الجميلة «الجغرافيا العربيه» عن غيرها من السيدات لا في الجمال ولا في خفة الحركة والروح ولا في النشاط والحيوية الفكريه والعميقة. لتنعلم من الآخرين ونجدد ثم نبتكر لنبرز الشخصيه المميزة للجغرافيا العربيه

قدم الكتاب نبذة عن ما قدمه جغرافيو دول العالم المختلفه لبلدانهم من خدمات علميه جلى. ولقد قدم بعضنا الكثير وفي مختلف معطيات الحياةالعمليه. ما نحتاجه ان نعرف ذاتنا ونتحرك لا عشوائيا بل بمسار علمي منهجي مدروس. ما نحتاجه خطة بحثية تغطي سطح الارض بكل معطياته البشرية والطبيعية. ان نكتشف بلدنا. ان نكتشف شعبنا. ان نكتشف انفسنا.

ما نحتاجه ان نعمل اكثر مما نتحدث، وأن نصدق في عملنا وقولنا. ما نحتاجه ان نكون امناء مع انفسنا ومع شعبنا وبلدنا. ما نحتاجه ان نقرن المعرفة النظرية بالعمل. ما نحتاجه نظام حياتي للتفكير والعمل المنظم. ما نحتاجه الكثير وهو يسير وممكن. ما نحتاجه ان نكون نحن ولسنا الآخرين الذين أخذنا بهم. ما نحتاجه ان نستعيد ارادتنا ونتملكها.